ISSN : **2602-618X**
EISSN: **2710-8031**

حركة التنصير في الجنوب الجزائري "جهود شارل دو فوكو أنموذجا"

Christianization movement in southern Algeria
Charles de Foucauld efforts as a model

الدكتور كمال بن صحراوي، جامعة تيارت
Kamel.bensahraoui@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2029/09/25 تاريخ القبول: 2019/10/29 تاريخ النشر: 2020/01/31

الملخص:

لم يقتصر ظهور أهمية الصحراء الجزائرية على فترة الاستعمار الفرنسي ولا أيام المفاوضات لما أراد الاحتلال فصلها عن الشمال. فالصحراء الجزائرية هي امتدادُ الجزائر الجغرافيُّ باتجاه الجنوب، وبوابتُها الواسعة نحو البلدان الإفريقية ثقافةً وعلما وتجارة. إنها تاريخ واسع مثلما هي جغرافيا واسعة، لذلك ركز عليها الفرنسيون، فعملوا على استكشافها تمهيدا لاحتلالها الذي رأوا فيه فرصة للتوغل نحو إفريقيا. ولم يقتصر الأمر على السياسيين والعسكريين وإنما تعداهم إلى "رجال الدين" الذين كانوا يحملون مشروعا استعماريا ويدّعون حمل رسالة حضارية، ومنهم شارل دو فوكو الذي ركز على الجنوب الجزائري لاعتبارات أمنية وأخرى نفسية متعلقة بطبيعة السكان لا سيما جهة الهقار.

لقد ترك دو فوكو حياة البذخ والرفاهية في فرنسا وآثر الحياة في الصحراء خدمة لمشروع بلاده الكبير المتمثل في التوسع على حساب الصحراء الكبرى، فساهم مع غيره بجد في التعريف بأقصى الجنوب الشرقي الجزائري من حيث السكان ولغتهم والطبيعة وطرق المواصلات، وهو ما كانت الإدارة الفرنسية في أمس الحاجة إليه.

ومن هنا فإن إشكالية البحث تتمحور حول دور شارل دو فوكو في التمهيد للهيمنة العسكرية الفرنسية على المناطق الصحراوية العميقة، وإصراره على المساهمة في إنجاح المشروع الفرنسي. لكن هل نجح دو فوكو في ذلك أم تحطمت آماله على صخرة العقيدة الصلبة التي كان عليها مسلمو الهقار؟؟

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

الكلمات المفتاحية: التنصير؛ شارل دو فوكو؛ الصحراء، الجنوب؛ الجزائر

Abstact : The importance of the Algerian Sahara was not limited to the French colonial period or the negotiations when the occupation wanted to separate it from the north. The Algerian Sahara is Algeria's geographical extension to the south, and its wide gateway to African countries in terms of culture, science and trade. It is not only wide geography but a wide history as well, so the French focused on it, and worked to explore it in preparation for its occupation, which they saw an opportunity to penetrate into Africain countries. Not only the politicians and the military, but also the "clerics" who were carrying a colonial project and claim to carry a civilized message, including Charles de Foucault, who focused on southern Algeria for security and psychological considerations related to the nature of the population, especially in Hoggar.

De Foucault left the extravagance and luxury of life in France and preferred life in the Sahara in the service of his country's great project of expansion in the Sahara. He worked hard with others to introduce the south east of Algeria in terms of population, language, nature and transportation. Introduction which french administration was in dire need of.

The issue of this paper concernes the role of Charles de Foucault in preparing for the French military domination of the deep desert areas, and his determination to contribute to the success of the French project. But did de Foucault succeed in that or did his hopes shatter against the solid doctrine that the Muslims of Hoggar had؟؟

Keywords:, Christianization, Charles de Foucauld, Sahara, Southern Algeria

مقدمة:

حين جهز الفرنسيون حملتهم لغزو الجزائر عام 1830م ضموا إلى قواتهم العسكرية قوات مساعدة تمثلت في المهندسين والمترجمين والأطباء والصحفيين وغيرهم من القوى الفاعلة، ولم يكن المشهد ليكتمل دون مشاركة رجال الدين الذين عوّل عليهم الساسة وكبار العسكريين ليزرعوا "الأمل" في نفوس الجنود البسطاء. وبعد نجاح الحملة صار لهؤلاء القساوسة دور بارز في

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

التحضير لمرحلة ما بعد التوسع العسكري الأول، حتى أن بعضهم حاول عرض المسيحية على الأمير عبد القادر ليثنيه عن المقاومة.

وكلما عاشت الجزائر مأساة إنسانية رهيبة في ظل الاحتلال الفرنسي عملت المؤسسة الكنسية على الظهور بمظهر المخلّص الذي جاء ليمسح دموع البسطاء. وكان من هؤلاء الراهب شارل دو فوكو الذي تقلبت مواقفه من الدين حين كان شابا ليتبنى مشروعا جريئا في نهاية ق 19م برحلته عبر المغرب الأقصى ثم باستقراره في بني عباس بالجزائر والانتقال فيما بعد إلى الهقار لتجسيد مشروع دعوي فرنسي ظاهره نشر المسحية وباطنه تعبيد الطريق للسلطة الفرنسية حتى تبسط نفوذها في الصحراء الجزائرية.

تتمحور إشكالية هذا المقال حول دور المؤسسة الدينية الكنسية وروادها في الجزائر في خدمة المشروع الاستعماري في أعماق الصحراء الجزائرية تمهيدا للتوغل في إفريقيا. ونتساءل في المقابل هل نجح دو فوكو في مشروعه أم عجز أمام عمق العقيدة الإسلامية لدى التوارق رغم اعتباره — من قبل الكنيسة الكاثوليكية - رمزا للتنصير في بداية القرن العشرين.

1- نبذة عن حياة شارل دو فوكو:

ولد شارل أوجين دو فوكو في 15 سبتمبر 1858 بستراسبورغ، مات والداه عام 1864 (في ظرف 04 أشهر)، تكفل به جده الذي أدخله مدرسة كنسية، وحين مات جده هذا ورث ماله فدخل حياة البذخ وعمره 20 عاما وانقطع عن «التدين»، ثم التحق بالمدرسة العسكرية سان سير Saint Sir. وفي 1872 صار ضمن تلاميذ مدرسة Saumur، ورغم ذكائه جعلته ظروفه العائلية يحتل المرتبة الأخيرة حيث كانت رتبته 187[1].

في نهاية 1880 جاء إلى الجزائر برتبة ملازم (عنابة — سطيف) ليعود إلى فرنسا بعد عام واحد لأسباب تأديبية، ثم يرجع إلى الجزائر من جديد ليساهم في محاولة القضاء على ثورة الشيخ بوعمامة.

ونظرا للتناقضات التي ميزت حياة دو فوكو دخل في مرحلة تيه تعرّف خلالها على الإسلام وهو في الجزائر ثم في المغرب وفي بلاد الشام حين زارها وأعجب بهذا الدين وفكر في اعتناقه، ثم ما لبث أن عاد إلى المسيحية وعُين قسيسا فتغير موقفه كليةً من الإسلام حيث عزم على محاربته.

1 - Catherine Mckee, Charles de Foucauld, le frère universel, Mediaspaul, 2017, p09

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

وفي 1883 انتقل دو فوكو من الجزائر إلى المغرب، فزار طنجة التي انطلق منها نحو المناطق المغربية الداخلية متنكرا في زي يهودي، وقد بدأ بالمناطق الشمالية فتعرف على جبالها وأوديتها وشعابها ومدنها، ووصف سكانها فتحدث عن لباسهم وطعامهم وتقاليدهم ولهجاتهم، لكنه لم يتحدث عن طبائعهم لقصر المدة التي قضاها بينهم[2].

ولم يكن دو فوكو يهتم بالمدن الكبرى خاصة تلك التي كتب عنها الرحالة، كفاس وتطوان، وإنما اهتم بالدرجة الأولى بالمناطق المجهولة التي لم تُسلك بعدُ من قبل الأوربيين، وكان يحمل معه دفترا صغيرا وقلم رصاص قصيرا لتسجيل المعطيات التي كان يجمعها، وكانت نتيجة هذه الرحلة كتابا من جزأين عنوانه "التعرف على المغرب". وكان مع دو فوكو في هذه الرحلة الربّي ماردوخي أبي سرور Mardochée Aby Serour المولود بمحاميد الغزلان[3] بجنوب المغرب[4] والذي صارت له معرفة جيدة بشمال إفريقيا بعد أن قضى مدة بالجزائر حاخاما بسكيكدة. وكان قبلها قد أمضى وقتا في الأراضي المقدسة بفلسطين، لذا اصطحبه دو فوكو معه من باب خبرته في التعامل مع المسلمين ومعرفته للأراضي المغربية.

في 1885 عاد دو فوكو إلى الجزائر وزار مدنا عديدة بالجنوب الجزائري كتمهيد لحياته في المستقبل في الصحراء، ثم زار تونس وعاد إلى باريس التي لازم بها القس Havelin واعتبره الأب الروحي في رحلة الإيمان الجديدة. وفي 1890 انضم دو فوكو إلى إحدى المجموعات الدينية في L'Ardèche وتَسمّى باسم الأخ ماري ألبريك Marie Albéric، وعمد إلى ممارسة الأعمال الشاقة لتطهير نفسه[5].

2- دو فوكو بني عباس:

حين وصل دو فوكو إلى بني عباس انبهر بطبيعتها التي تميزها أشجار النخيل فقرر البقاء بها خاصة وأنها قريبة من المغرب الذي كان ينوي الرجوع إليه. وفي واحة بني عباس اشترى قرابة 09 هكتارات على الضفة اليسرى لوادي الساورة بـ 1170 فرنكا وأقام عليها مسكنه[6].

2- شارل دو فوكو، التعرف على المغرب، 1883-1884، الجزء الأول، الرحلة، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص 05

3- مدينة سياحية صغيرة في الجنوب الشرقي للمغرب الأقصى

4 - Rene Bazin, Charles de Foucauld, explorateur du Maroc, ermite au Sahara, Plon, Paris, 1921, p35

5- عميراوي احميدة وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، 1844-1916، عين مليلة: دار الهدى، 2009، ص 113

6- Réne Bazin, Op.cit. p204

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

يقدم René Bazin وصفا للصومعة التي بناها دو فوكو بعد أن أمضى وقتا في مقر المكتب العربي، فهذا البناء لم يكن سوى تجميع لبعض المواد دون هندسة تذكر. وإذا كانت هذه الصومعة قادرة على أن تحمي من فيها من أشعة الشمس فإنها لم تكن لتقاوم زخات المطر.

وبعد إتمام البناء تطوع أحد ضباط الحامية العسكرية الموجودة ببني عباس فرسم لوحاتٍ لأربعة قساوسة، وكان دو فوكو نفسه قد رسم في "التعرف على المغرب" صورة للسيد المسيح وهو ينادي الناس ويضمهم إليه[7].

في بني عباس التي بقي فيها دو فوكو 04 سنوات بين 1901-1905 قرر تقديم صورة مثالية للرجل المسيحي، فكان يعمل عددا معينا من الساعات ثم ينقطع للعبادة، ويخصص بعضا من وقته لمجالسة سكان بني عباس المسلمين، أما النوم فلم يُبقِ له إلا ساعات قليلة.

"كان التبشير هو الأساس في اعتقاد فوكو، والتعمير وسيلة لتحقيقه. إنه لا يكتفي بتنصير المسلمين واليهود والمسيحيين المنحرفين فحسب، بل يريد تنصير القارة الإفريقية كلها، وكان هدفه في ذلك هدف لافيجري Lavigerie، ولكنه كان يتحرز كثيرا في طريقة التبشير الصريح لأنه كان يدرك صعوبة الأمر في البلاد الإسلامية"[8].

واضح إذن أن أسلوب دو فوكو كان يلائم مهمته التي جاء من أجلها، ويظهر هذا جليا من خلال كتابه "التعرف على المغرب" حيث "أبدى براعة في صوغ أفكاره بأسلوب بسيط محفوف بنبرات غنية، منتقلا من فكرة إلى أخرى في تلاحم كبير يؤكد مدى عبقريته الأدبية"[9]. غير أن هذا لم يكن مجرد مبادرات فردية من قبل دو فوكو ولكنه كان خطة فرنسية مدروسة يتم عبرها حشد دعم أجهزة السلطة والحكومة العامة بالجزائر والكي دورسي Quai d'Orsay (وزارة الخارجية الفرنسية)[10].

كان عدد الجنود الفرنسيين في الصحراء الجزائرية العميقة قليلا، فهذه المناطق لم تعد بعدُ فرنسية بقدر ما صارت خاضعة للإدارة العسكرية الفرنسية، لذلك صار همُّ العسكر في هذه المنطقة هو غزو أهل الصحراء نفسيا قبل محاولة فرض الهيمنة عليهم بالقوة.

7 - Réne Bazin, Ibid, p205

8- بوعمران الشيخ، شارل دو فوكو في تمنراست، 1905-1916، مجلة الثقافة، العدد 76، سنة 1983، ص 81

9- محمد مزيان، المغرب في الأدبيات الكولونيالية الفرنسية ومشروعية الغزو والإلحاق، عمران، العدد 17/5، صيف 2016، ص 115

10- نفسه، ص 115

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

ومن هذا المنطلق صار العسكريون بحاجة إلى شارل دو فوكو الناسك المتعبد أو قل إن شئت "المرابط المسيحي" ليعطي صورة طيبة عن المحتل الفرنسي الذي صاحبت اجتياحَه للمنطقة صورةُ العلماني الذي يريد فرض منطقه على الجزائر المسلمة. إن هذا المحتل ليس حتى مسيحيا، لكن وجود الناسك شارل دو فوكو بين المسلمين في بني عباس أو حتى في الهقار لاحقا سيجعل الفرنسيين مسيحيين "بالوكالة". وكان فوكو يعلم أنه مستخدم من قبل العسكر والسلطة الفرنسية، لكنه كان يرى— في هذا - من جهة أخرى مجال استفادة واسعا للغاية. فلولا حماية العسكر ما استطاع البقاء في الصحراء[11].

3- دو فوكو في الهقار:

لماذا ذهب دو فوكو إلى تمنراست؟؟ وهل ذهب من تلقاء نفسه حبا في الرب ورغبة في خدمة الكنيسة بنشر النصرانية، أم كان ذلك بتكليف من السلطة العسكرية الفرنسية ليتعرف على المنطقة ويتقن لغتها ويتحول بذلك إلى وسيط بين سكانها وبين الفرنسيين، وحتى يسهّل اتصال المنصرين في المستقبل بسكان المنطقة.

تجيبنا كاترين ماكّي بقولها:

"في 1903 طلب المسؤول الجديد عن الواحات الصحراوية الرائد لابيرين Laperrine من شارل دو فوكو المشاركة في حملات تموين ينظمها لفائدة التوارق الذين تقتضي مصلحة الفرنسيين التوسعية إخضاعهم بالطرق السلمية عوض استخدام القوة".

"تردد دو فوكو في البداية لأن هذه المهمة تقتضي جهدا مضاعفا، حيث يجب قطع آلاف الكيلومترات بصحبة الجنود وقادتهم، ولكنه في النهاية قبِل المهمة لأنها تقربه أكثر من التوارق، وهذا ما يجعله أقرب إلى تحقيق الهدف الأكبر وهو خدمة العلم الفرنسي في الصحراء الجزائرية".[12]

وجاءت بعثة أخرى شارك فيها النقيب Arnaud والملازم الأول Cortier من سلاح "مشاة الاحتلال" بأمر من Roume الحاكم العام لإفريقيا الغربية بهدف دراسة تركيبة سلاح المهارى وتنظيمه. وفي الطريق التحق بهذه البعثة كل من النقيب Dinaux والأب شارل دو فوكو[13].

11- Hugues Didier, Charles de Foucauld.
https://www.clio.fr/BIBLIOTHEQUE/pdf/pdf_charles_de_foucauld.pdf / 18/09/2019 à 08H.16

12 - Catherine Mckee, Op.cit, p17

13 - Maurice Zimmermann, Sahara. Expéditions C. de Motylinski, Arnaud-Cortier in Annales de Géographie, T. 16, N 90, pp 471-472

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

4- أسباب اختيار دو فوكو لتمنراست ونشاطه بها[14]

1) واضح أن دو فوكو كان يعتقد أن التوارق أقل تعلقا بالإسلام لبعدهم عن الحواضر الإسلامية الكبرى التي من شأنها احتواء مؤسسات دينية كثيرة تنشر الإسلام وتعرّف به. وهذا البعد يجعلهم أقل احتكاكا بالعلماء وطلبة العلم.

غير أن فوكو أخطأ التقدير. فالتوارق أكثر تعلقا بالإسلام مقارنة بكثير من مسلمي المدن العامرة بالمؤسسات الدينية. وإذا كانت ظروفهم المعيشية قاسية للغاية فإن مبدأ القناعة التي يعيش بها كثير منهم يجعلهم في غير حاجة إلى دو فوكو ودولته الفرنسية.

2) رأى دو فوكو بتوجيه من الضباط العسكريين أن تمنراست حاضنة جغرافية ملائمة لكثرة أمنها، وقلة سكانها الذين لم يتجاوز عددهم أكثر من 100 فرد يعيشون ضمن 20 عائلة تقريبا[15]

3) أهمية وجود الأمينوكال موسى[16]، وهو - المسؤول عن التوارق - الذي ضغط عليه الفرنسيون ليقبل بوجود فوكو في المنطقة، ولم يكن بمقدوره رد هذا الضغط، فميزان القوى يعرف خللا كبيرا. وكان فوكو يعتبر موسى في البداية صديقا حميما، ويعده رجلا ذكيا متفتحا ومسلما تقيا. ذلك أن موسى اتبع إرشادات فوكو تجنبا للمواجهة، ولكنه ظل يعمل على نشر الإسلام، حيث بنى زاوية ومسجدا بتمنراست، وهذا ما جعل الأب النصراني يعتبره خطرا على مشروعه التنصيري وعلى تمدد الدولة الفرنسية بالمنطقة[17].

في 01 فيفري 1912 جاءت إلى الهقار لجنة تقنية رسمية مؤلفة من 04 مهندسين وضباط ومختصين في الجيولوجيا على رأسهم الجيولوجي René Chudeau لدراسة خط السكة الحديدية

14- بوعمران الشيخ، مرجع سابق، ص 83

15- يقدم بعض المصادر أرقاما أقل: 24 عائلة تضم 52 فردا. راجع مثلا:

Maurice Zimmermann, Op.cit

16- موسى أغ أمستان (1867-1920) زعيم الهقار، وقد حدثت منافسة بينه وبين أتسي آق ملال لخلافة أهيتاغل آق محمد بيسكا، وفاز موسى ببعض الدعم من الفرنسيين. ولكنه في المقابل عارض التوسع "الديني" الفرنسي ببناء زاوية وتصديه لنشاط دو فوكو. راجع كلا من:

محمد مبارك كديده، النظام السياسي عند التوارق و التوسع الفرنسي في أقصى الجنوب، مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية، الحجم 2، العدد 2، ص 09

بعلي حفناوي، صحراء الجزائر الكبرى في الرحلات وظلال اللوحات وفي الكتابات الغربية، عمّان، دروب للنشر والتوزيع، 2016، ص 83

17- بوعمران الشيخ، مرجع سابق، ص 84

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

العابرة للصحراء، وصار دو فوكو مهتما بالموضوع بشكل خاص بعد أن أصبح عضوا في هذه اللجنة.

ففي رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه كتب دو فوكو: "إنني مسرور للغاية لأن خط السكة الحديدية في هذه المناطق وسيلة قوية لنشر الحضارة، والحضارة تساعد بقوة على التنصير. ولا يمكن تنصير الهمج (المتوحشين)"[18]

وبعد مغادرة هذه اللجنة للهقار وقع الأب دو فوكو مريضا بسبب لدغة أفعى ذات قرون، ولم ينج من ذلك إلا بسبب الجهد الذي بذله التوارق لإنقاذه، ورغم ذلك ظل ضعيفا للغاية مدةَ تماثلِه للشفاء، فأمر الأمينوكال موسى بإحضار بقرتين من بعيد لتوفير الحليب الضروري لهذا المريض.

لم تكن هذه المعاملة الطيبة من المسلمين في الهقار لتغير من مخطط شارل دو فوكو، فها هو يعزم في 28 أفريل 1913 على الذهاب إلى فرنسا مصطحبا معه شابا تارقيا اختاره من بين أفراد عائلة ميسورة الحال. وحضّر عائلته هناك لاستقبال أوكسم Ouksem صاحب الشعر المظفور، الذي لا يلبس إلا إزارا يغطي القسم الأسفل من جسمه. وكان الهدف هو إقحام هذا الشاب في الحياة العائلية المسيحية لعله يصبح سفيرا ينقل هذه الصورة إلى غيره من التوارق ليقنعهم أن الدين المسيحي هو الذي يضفي هذا الدفء على الفرنسيين!!!

أما العودة إلى تمنراست فكانت يوم 22 نوفمبر 1913، وقد ظل دو فوكو يأمل أن يحقق هدفه الأكبر من وراء هذا السفر، لذا كتب إلى صهره: "سيكون لهذه الجولة أثر أحس به منذ هذه الأيام الأولى. إنه الثقة المتزايدة في شخصي، وفي كل الفرنسيين تبعا لذلك"[19]

غير أن أمل دو فوكو بدأ يخيب، ذلك أن أوكسم لم يتأثر بهذا السفر، بل ظل محافظا على نمط حياته العام، ولم يعتنق النصرانية، وقد احترم دو فوكو قراراته هذه، لكن الأب الروحي لم يكن يعلم أن هذه الشاب التارقي سيشارك في الثورة ضد الفرنسيين عام 1917 أي بعد شهرين فقط من اغتياله.[20]

18 - René Bazin, Op.cit, p403
19 - René Bazin, Op.cit, p107
20- أبو عمران الشيخ، مرجع سابق، ص 85

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

5- وفاة شارل دو فوكو[21]:

على إثر الثورة السنوسية التي اندلعت عام 1916 وصل إلى تمنراست المجاهدون الذين يسميهم الفرنسيون بالفلاقة[22]، وهاجم 20 منهم حصن الأب دو فوكو لعلمهم بما يحوي من أسلحة وذخيرة. وقد كان الأب وحده في حصنه، بينما كان خادمه Paul في القرية. ويدّعي صاحب الكتاب المشار إليه في الهامش أن دو فوكو إنما كان يملك هذه الأسلحة للدفاع عن التوارق!!!

ومن باب الحيلة الضرورية للوصول إلى الأب دو فوكو استخدم المجاهدون أحد التوارق اسمه المداني Madani ag Gibbo، فدق الباب باسم رسول حصن موتلنسكي[23]، ولما فتح الأب الباب مد يده لاستلام البريد وإذا بالمجاهدين يدخلون عليه الحصن ويقيدونه، ويكلفون أحدهم بحراسته. وبعد مدة قصيرة كثر الهرج، ويبدو أن الأب حاول الفرار فتلقى رصاصة من الحارس أردته قتيلا. كان ذلك كله في 01 ديسمبر 1916م.

وفي 21 ديسمبر من نفس العام وصل النقيب روش Le Capiltaine Roche إلى تمنراست بمعية رقيب وجندي، وبمجرد وصوله توجه للتعرف على قبر دو فوكو حيث وضع عليه مزيدا من التراب وصليبا من خشب[24].

شكل خبر موت شارل دو فوكو صدمة كبرى للفرنسيين وللعالم الكنسي في أوربا، فقد رثاه كثير من الكتاب وأشفقوا لحاله لأنه مات "وحيدا" ولم يجد من يدافع عنه. وكان قد أنشأ أُخُوَّةً[25] تسمى l'Union des Frères et Sœurs du Sacré-Cœur de Jésus أعضاؤها 48، نصفهم رجال دين ونصفهم لائكيون.

وحين علق أحد القساوسة الحاضرين على موت دو فوكو قائلا: "لقد انتهى كل شيء" قام اللائكي Louis Massignon وقرر مواصلة عمل الأب المغتال، وأقنع لائكيا آخر هو René

21 - René Bazin, Op.cit, p118 et suite

22 - René Bazin, Ibid, p468

Dominique Casajus, Charles de Foucauld face aux Touaregs Rencontre et malentendu, Terrain, n° 28/mars 1997, Miroirs du colonialisme, p30

23 - أول حصن فرنسي بالهقار، يقع على بعد 50 كلم شرق مدينة تمنراست

24 - René Bazin, Op.cit, p 468

25 - Confrérie ou Sodalité

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

Bazin بتأليف كتاب عن حياة دو فوكو[26]، وهو الكتاب الذي عرّف بهذه الشخصية بشكل كبير وبمشروعها التنصيري الخطير، وبرغبتها في أن يمشي كثير من اللائكيين الفرنسيين - رجالا ونساء، فلاحين وحرفيين وحتى ممرضات .على خطاه في طريق نشر المسيحية.

ومن آثار جهود فوكو بالجنوب الجزائري تأسيس les Petites Sœurs du Sacré-Cœur من قبل أرملة من بروكسل كانت قد راسلت ماسينيون تسأله قبولها ضمن هذه "الأخوة" فأجابها بأن هذه الهيئة موجودة على الورق فقط، ودعاها إلى تأسيسها، وهو ما فعلته لاحقا. وفي 1933 انعقد مؤتمر كبير في Issy-les-Moulineaux حضره بعض القساوسة من بينهم René Voillaume وأنشأوا — متأثرين برسالة دو فوكو التنصيرية - Petits Frères de la Solitude، ثم أسموها لاحقا Les Petits Frères de Jésus . وعلى خطاهم سارت Sœur Magdeleine فأنشأت عام 1939 ما يعرف بـ les Petites Sœurs de Jésus[27]

خاتمة:

هكذا إذًا سطع نجم الأب شارل دو فوكو في الصحراوء الجزائرية، خصوصا في تمنراست بعد أن انتقل إليها من بني عباس عام 1905، والتقى بها بالمستشرق موتلنسكي Motylinski[28] وقضيا معا بضعة أشهر. كما ألف دو فوكو معجما تارقي — فرنسي / فرنسي تارقي مجموع صفحاته 1450[29]، وترجم مجموعة من النصوص المسيحية إلى التارقية[30]، إضافة إلى مجموعة من القصائد الشعبية جمعها وترجمها إلى الفرنسية. وقد اعتُبِر المعجم المذكور مرجعا لكثير من الدراسات التي اهتمت باللغة الأمازيغية.

من أهم المقترحات التي تقدم بها دو فوكو لتحسين أوضاع أهل تمنراست العمل على تربيتهم على الأخلاق، وكأنهم كانوا بلا خلق حتى جاء الفرنسيون. كما ارتأى العمل على نشر

26- هو الكتاب الذي أدرجناه ضمن بيبليوغرافية هذا المقال، وقد نشر عام 1921

27 - Jean-François Six, la postérité de Charles de Foucauld, S.E.R. «Études», 2002/7 Tome 397, p66 / https://www.cairn.inforevue-etudes-2002-7-page-63.htm

28- مستشرق فرنسي اشتغل ترجمانا لدى الجيش الفرنسي، ومديرا لمدرسة قسنطينة، واهتم بمنطقة وادي ميزاب والمذهب الإباضي. وفي 1906 كلف بمهمة جغرافية في منطقة الهقار. توفي يوم 02 مارس 1907

29 - عميراوي احميدة، مرجع سابق، ص 114

30- اللغة التارقية المتكلم بها هي التمشاك Tamacheq أو التمهاك والمكتوبة هى التافيناغ.
للتعرف على دور المستكشفين الفرنسيين في التعريف بلغة التوارق خاصة Henri Duveyrie.
يراجع: إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص 86

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

التعليم الفرنسي فيهم، والهدف واضح وهو قطع كل طريق محتمل بينهم وبين اللغة العربية، ونثر أولى بذور الثقافة الفرنسية.

أما من الناحية الاقتصادية فاقترح تثبيت الرحل في القرى مع الحفاظ على تربية المواشي، وطالب السلطة الفرنسية بتوفير بستاني خبير وطبيب وشخص يحفر الآبار.

ظل دو فوكو في تمنراست إحدى عشرة سنة لم يفلح خلالها في إقناع شخص واحد من التوارق باعتناق النصرانية، وهذا يدل على عمق العقيدة الإسلامية في نفوسهم. وقد اعترف هو ذاته بهذا الفشل الذريع حين كتب في 07 سبتمبر 1915 رسالة جاء فيها قوله: "غدًا تمر 10 سنوات منذ بدأت أقوم بالقداس بتمنراست، ولم أتوصل إلى تنصير شخص واحد"[31]. تميز دو فوكو بطول النفس، حيث لم ييأس وظل يحاول حتى قُتل يوم 01 ديسمبر 1916 لقناعته التامة بأنه جندي فرنسي لكن على جبهة مختلفة هي جبهة التنصير، ولأنه كان يؤمن إيمانا راسخا بضرورة بسط النفوذ الفرنسي على شمال إفريقيا.

لم تكن مهمة دو فوكو شيئا منعزلا، وإنما اندرجت ضمن مخطط أوربي كبير للتعرف على الصحراء باعتبارها مفتاحا لأبواب إفريقيا. فقد استفاد دو فوكو من تجربة الألماني بارث[32] والكاردينال لافيجري والمستشرق رينان. كما كان صديقا حميما للمستكشف الفرنسي دوفيري Henri Duveyrier الذي جاء إلى الجزائر ونشر مقالا ببرلين - وهو لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره بعدُ — حول القبائل الأمازيغية ضمّنه مفردات من لغتها. ودوفيري أصلا هو الذي سيقدّم - إلى الجمعية الجغرافية فيما بعد - النتائج التي يتوصل إليها دو فوكو في رحلته داخل أراضي المغرب الأقصى[33].

إن أخطر ما في مشروع دو فوكو أنه جمع بين الرغبة الملحة في نشر المسيحية وبين نظرته الثاقبة المبنية على ضرورة استخدام ما توصلت إليه الحضارة الأوربية آنذاك لتحقيق هذا الهدف. فانطلاقا من هذا كان اهتمامه بالسكة الحديدية التي رأى فيها وسيلة لإيصال النصرانية إلى المسلمين في الصحراء.

31 - بوعمران الشيخ، مرجع سابق، ص 88

32 - محمد مرغيت، سياسة التنصير ودورها في المخطط الاستعمار الفرنسي، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 04، 2017، ص 128

33- إسماعيل العربي، مرجع سابق، ص 82

ISSN : 2602-618X
EISSN: 2710-8031

تجدر الإشارة في الأخير إلى الحديث الذي كرره الفرنسيون كثيرا والذي مفاده حب التوارق لدو فوكو. نعم، كان بعض الأهالي يحبون هذا الشخص كراهب أو "مرابط مسيحي" يتفقدهم ويعتني بهم ويعطف عليهم. والدليل أنهم عالجوه حين مرض واهتموا لأمره حتى تعافي.

أما دو فوكو المنصّر الذي يحمل رسالة محاربة الإسلام لفسح المجال أمام التمدد الاستعماري الفرنسي فلم يرضَ به التوارق، ولذلك شاركوا في الثورة حين اندلعت، ولم يدافع أحد منهم عن الأب الذي يحمل راية "التبشير" لأنهم اعتبروه عسكريا يلبس ثياب الرهبان.

البيبليوغرافيا:

المصادر:

1- دو فوكو شارل، التعرف على المغرب، 1883-1884، الجزء الأول، الرحلة، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، 1999

المراجع:

1- الشيخ بوعمران، شارل دو فوكو في تمنراست، 1905-1916، مجلة الثقافة، العدد 76، سنة 1983

2- العربي إسماعيل، الصحراء الكبرى وشواطئها، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983

3- عميراوي احميدة وآخرون، السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية، 1844-1916، عين مليلة: دار الهدى، 2009

4- مرغيت محمد، سياسة التنصير ودورها في المخطط الاستعمار الفرنسي، المجلة التاريخية الجزائرية، العدد 04، 2017

5- مزيان محمد، المغرب في الأدبيات الكولونيالية الفرنسية ومشروعية الغزو والإلحاق، عمران، العدد 17/5، صيف 2016

Bibliographie

1- Bazin Rene, Charles de Foucauld, explorateur du Maroc, ermite au Sahara, Plon, Paris, 1921

2- Hugues Didier, Charles de Foucauld. https://www.clio.fr/BIBLIOTHEQUE/pdf/pdf_charles_de_foucauld.pdf / 18/09/2019 à 08H.16

3- Mckee Catherine, Charles de Foucauld, le frère universel, Mediaspaul, 2017

4- Six Jean-François, la postérité de Charles de Foucauld, S.E.R. «Études», 2002/7 Tome 397, p66
https://www.cairn.inforevue-etudes-2002-7-page-63.htm

5- Zimmermann Maurice, Sahara. Expéditions C. de Motylinski, Arnaud-Cortier in Annales de Géographie, T. 16, N 90, pp 471-472